

عَدَالِ الْفَاسِي

الْحَرَكَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ

فِي
الْمَغْرِبِ الْعَرَبِيِّ



فی المغرب الاوسط
أو
الجزائر

في العام الماضي تقدم وفد من حركة انتصار العريات الديموقراطية التي ليست الا مظهرا رسميا لحزب الشعب الجزائري الى الولاية العامة في الجزائر يطالب بنقل رفات بطل الاستقلال الجزائري الاول الامير عبد القادر من مرقده في ضواحي دمشق الى وطنه الاصلي بالمغرب الاوسط . ولم يقصد هؤلاء النواب الاحرار بهذا الطلب الذي يعلمون عدم استعداد الوالي العام الفرنسي لتحقيقه، الا تأكيد ما صرح به زعيمهم السيد مصالى الحاج حين قال : «ان حركتنا ليست الا رفعا جديدا لعلم الامير عبد القادر الذى ناضل طيلة حياته عن حرية الشعب الجزائري واستقلاله» .

واذا فحركة الاستقلال القائمة الان في بلاد الجزائر، ليست الا امتدادا لحركة المقاومة الاولى التي ظل الامير عبد القادر ومن بعده قائمين عليها مستويتين في سبيل مثلها العليا منه هجمت قوات المارشال دوبورمو على سيدى فرج في ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠

لقد اعتدت فرنسا على الجزائر في وقت كانت السيادة فيها للدولة العثمانية التي لم تستطع من المقاومة الا قليلا، ولكن ما استسلم الولاة الاتراك بالجزائر حتى كانت المقاومة العربية اولا قد ابتدأت بفضل وصول الجيش المراكشي (فى اكتوبر سنة ١٨٣٠) الى مدينة تلمسان تحت رئاسة القائد المراكشي أبي الحسن على الذى استطاع ان يؤلب قبائل الناحية كلها تحت رايته لمقاومة الفرنسيين، ورفض الاستسلام التركى . وبعد ان انضم اليهم محى الدين قرروا تأييد سلطان المغرب في الجهاد لحماية المغرب العربي من الاعتداء الاجنبى. وبرغم الدسائس الفرنسية التي عينت بايا تونسيا على عمالة وهران لضرب العرب بعضهم ببعض فان التضامن المغربي في المقاومة كان قد تأسس، وزاده قوة تنزه الامير عبد القادر عن قبول أية صفة من صفات الحكم، الا على كامل الاتفاق مع الحكومة المراكشية. وبعد احداث وتقلبات لا يسع المجال ذكرها أسس الامير عبد القادر الایالة الجزائرية المستقلة عن الفرنسيين

وعن الترك معاً. وكون جبهة قومية متعددة أمام العدو فبعث بذلك في نفوس الجزائريين شعوراً بروح وطنية وعربية طالما أخذوها الأضطهاد التركي والاضطراب القبلي. ولعل من أكبر دلائل النبوغ والذكاء في عبد القادر تنبهه لضرورة تضامن شعوب المغرب العربي للدفاع عن نفسها. ومن الحق أن نعترف بأن عدم استمرار الدولة المراكشية في تأييد مقاومة الجزائر لأسباب قاهرة، وعدم انتباه التونسيين للخطر الفرنسي إلى جانب الاهمال العثماني قد أدى إلى هجوم الغربيين على العالم العربي وتقسيم السكسونيين واللاتينيين للشعوب العربية كلها.

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشي من أولاد سيدى الطيب بنواحي وزان، دخل الجزائر حوالي سنة ١٨٣٥ ، وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين في مناطق وهران الجنوبي، ثم انتقل إلى زواوة حيث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقاً كثيراً. وبما أنه كان مستقلًا في حركته عن الأمير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولاً أنه يمكنهم الاعتماد عليه في إضعاف سلطة الأمير، ثم عادوا يرهبون منه بعد أن نازلهم سنتين كبدتهم فيها خسائر فادحة، وتوج عمله بالانضمام إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه إلى الجزائر واستمر في قتاله، ولما عاد الأمير في نفس السنة انضم إليه مرة أخرى أبو معزى والتفت من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين في معركة سيدى ابراهيم بغرب جامع الغزوات، الامر الذي اضطر من أجله «بيجو» لطلب جيش قوامه عشرة آلاف جندي قسمها إلى ثمانية عشر جحفلًا طارد بها الأمير وخلفاءه، فوقف أبو معزى وقفه عظيمة، واستمر في القتال حتى تغلبت عليه الجحافل، واضطرب للاستسلام فاعتقل في حصن (هام) بشمال فرنسا في نفس الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلًا فيها قبل توليه الحكم. وبعد ما وقع العفو عنه انتقل لتركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشًا .

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في التوقازى أسر الروس، ثم توفي في مدينة باطوم .

وقد ادعى من بعده ستة أفراد جزائريين أنهم هم أبو معزى وبعضهم ادعى أنه أخوه وتسمى باسم مولاي احمد أبو معزى، وقد جرح هذا الأخير في أحدى المعارك وأُسر، ثم أحيل على المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيبة، وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الآتي :

- سأله الرئيس من أنت ؟ قال : أنا أبو معزى.
- لماذا قاتلت فرنسا ؟
- تكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.
- ألم تر أن العرب انضموا اليانا ؟
- هؤلاء العرب قسمان : الأكثريتهم أبرياء يخالفون على حياتهم، والاقلية سفلة خونة لا يبหشون الا عن ارضاء الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط احمر.
- ماذا تنتظر منا ؟
- لا يهمني ما أنتظركم .
- واذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل ؟
- أعود للجهاد في سبيل الله.
- واذا قتلناك ؟
- سأتقدم الله ناطقا بالشهادتين.
- واذا سجناك ؟
- سأقضى اوقاتي عابدا طالبا من الله أن ينصر العدل على الظلم.
- لماذا تكرهنا ؟
- لأنكم ظلام طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك .

وفي سنة ١٨٤٩ اعتدى حاكم الزعاطشة (قبيلة في جنوب قسنطينة على مقربة من مدينة بسكرة) على قائدتها السابق الذي كان معيناً عليها من طرف الأمير عبد القادر، وهو القائد أبو زيان، فأخذ هذا يعرض الاهالي الذين كانوا استسلموا للفرنسيين سنة ١٨٤٧ على استئناف القتال. وفعلا التفت من حوله جمع تمكّن من القضاء به على جفحل فرنسي كان مارا بقرب بسكرة . فأرسل عليه الفرنسيون حملة تأديبية قوية حاصرت هذه الواحة التي لم تكن تؤوي أكثر من ثلاثة آلاف من السكان كلهم غراس نخيل. ومع ذلك فقد قاوموها ستة أشهر كاملة، وتمكن ابو زيان من الانتصار على ثلاثة قواد فرنسيين ارسلوا بالتتابع للقضاء على هذه الواحة البسيطة الى أن اضطر الحاكم العام لتجهيز جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل و ٤٥ مدعاً وعدد كبير من المهندسين العسكريين المختصين في قن الالغام. ومع ذلك فلم يستطعوا التغلب على الواحة الا بعد قتال شديد دار بين النخيل وفي ارجاء البيوت، وتکبد فيها الاهالي أكثر من الف قتيل. وبعد ما احتل الفرنسيون الواحة أمر القائد العام

الجنرال هيربيو الكولونيل كريبير الذى اصبح بعد مارشالا فرنسيسا
أن يتوجه بالجيش للتنكيل بجميع من بقى من الاهالى بما فيهم النساء
اللائى شاركن جنبا لجانب مع الرجال طيلة امد القتال. وقد حشر الجيش
بقية الاهالى فى الواحة، ثم نسفوها بعد ما قبضوا على ابى زيان الذى
كان جريحا وقطعوا رأسه ورؤوس اولاده الثلاثة الذين لا يتجاوز اكبرهم
ست عشرة سنة. وارسلت هذه الرؤوس وغيرها لبسكترة حيث علقت
على ابواب المدينة. اما السكان فلم ينج منهم احد، فالبعض مات فى اثناء
القتال، والآخرون قتلوا بالحراب بعد استسلامهم ومن بينهم

١١٧ امراة .

استمرت هذه الحرب القومية للدفاع عن استقلال الجزائر مدة
ثمانية عشر عاما انتهت بانتصار القوة الغاشمة على الحق، وكانت خلالها
السلطات الفرنسية تغرس نفوذها في باقي البلاد، ولكن لتزرع في نفوس
الاهالى روح الثورة الدائمة التي سترى كيف كان الضغط يخدمها
احيانا، ولكن طموحها للتحرر يبعثها لتعلن حكم الشعب الجزائري الذي
لا يرضى بالعريبة بدليلا.

ولقد كان التكتيك السياسي الفرنسي ماهرا في التلويع بمبدأ
الحرية والمساواة في حظيرة الاخاء الفرنسي كلما دعا لذلك داعي الضغط
القومي، حتى تحول مجرى الحركة التحريرية إلى مجرى مطالبة للتساوي
بين العناصر الساكنة في البلاد. وسترى كيف تلونت هذه السياسة
وكيف تلونت الحركة الجزائرية بما يقتضيها .

ففي سنة ١٨٣٤ ضمت الجزائر لفرنسا بمرسوم من لويس فيليب
ملك فرنسا اذ ذاك، ولكن هذا الانضمام لم يكن له اثر مفعول؛ اذ كانت
الحرب الفرنسية الجزائرية على اشدتها. وفي سنة ١٨٤٦ قررت فرنسا
اعتبار الجزائريين فرنسيين واعتبار الجزائر بلادا مفتوحة، وهذا القرار
هو الذي علم الحد الفاصل بين استقلال الشخصية الجزائرية وبين الحكم
الفرنسي المباشر، وهو الذي قضى على كل اساليب المجاملة في
العلاقات، ولذلك يسميه الاهالى الجزائريون بتاريخ ابتداء حكم السيف،
 واستمر حكم الارهاق هذا حتى جاء الامبراطور نابليون الثالث فأصدر
في سنة ١٨٦٥ مرسومه المشهور (سيناتوس كونسيت) الذي أعلن
فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح
لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية الى احكام الشريعة الاسلامية، وقد
زار الامبراطور بلاد الجزائر حيث القى خطبته الشهيرة التي استهلها

بع قوله: «إننى أعد نفسى أمبراطور العرب كما أنتى أمبراطور الفرنسيين، وكلهم فى نظرى متساوون » .

وإذا كانت سياسة نابليون ترمى الى مدى بعيد فان المستعمرىن الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا الى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة، وقاوموا بكل ما لهم من جهد سياسة نابليون مبرهنين بذلك على ما استمرروا عليه من تقديم مصلحاتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها .

وإذا كانت هذه المحاولة الامبراطورية لم تستطع أن تتغلب على مقاومة المستعمرىن لكل ما من شأنه ان يحسن حالة الشعب الجزائري او يمتعه ببعض حقوقه فانها قد استطاعت ان يجعل من مشروع نابليون مثالا عاليا تلوح به فرنسا للعرب، وسببا طالما حول وجهة المقاومة العربية عن المطالبة الصريحة بالاستقلال الى المطالبة بالمساواة ظنا منها أن الوصول الى هذه الغاية أسهل بكثير من الوصول الى الحرية القومية الكاملة، واعتقادا منهم بأن الاستقلال الذى عجزوا عن بلوغه بطريق الحرب لا يمكنهم ان يبلغوه الا بطريق التدرج فى المطالبة.

وما سقطت الامبراطورية سنة ١٨٧١ وأعلنت حكومة الجمهورية الثالثة حتى تقدم غامبيتان رب الجمهوريين واليهم المعبد بعملين خطيرين جدد بهما استعباد الشعب الجزائري، ذلك الاستعباد الذى لا يزال الجزائريون يرزحون فيه الى الان : الاول قانون كريمو (وزير العدل اليهودى فى حكومة غامبيتان) وهو القانون الذى منحت فرنسا بموجبه يهود الجزائر صفة المواطن资料的主人翁 لتكثير سواد الفرنسيين فى هذه البلاد. والثانى اصدار عدة مراسيم استثنائية ضدا على المسلمين الجزائريين أبعدهم بمقتضاهما عن دائرة الحق العام، وجعلهم تحت التصرف المطلق لحاكم الجزائر العام وادارته، وبموجب ذلك اصبح للادارة الحق فى اعتقال كل جزائرى يشك فى ولائه للسيادة الفرنسية ، وكذلك طرده من البلاد وحجز امواله ومصادرة املاكه. وقد اوغل غامبيتان فى هذا الاستثناء فمنع حكومة باريس والبرلمان资料的主人翁 من حق التدخل فى أعمال الولاية العامة الراجعة لاضطهاد الاهالى من أجل توطيد دعائم الحكم资料的主人翁 فى الجزائر .

رد الفعل :

ولكن الشعب الجزائري لم يقف ازاءه هذا التصرف الجائر مكتوف الايدي بل اندفع يعلن غضبه المطلق على السلطة الفرنسية وتدخلها فى

الشؤون الدينية لل المسلمين واتخاذها سياسة التفرقة المبنية على الميز العنصري والاضطهاد الديني ، فاندلعت ثورة كبيرة شملت كل بلاد زواوة مقاطعة قسنطينة وعمالة الجزائر ، وكان يترعها البشا اغا الحاج محمد المقرانى والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الدرقاوية.

استمرت هذه الثورة الخطيرة ستة اشهر كاملة كلفت المسلمين ما لا يقل عن سنتين الف شهيد ، وكلفت الفرنسيين عشرين الف قتيل ، ولم تخدم الا عند ما اسرع بسمارك باطلاق سراح الجيش الفرنسي الذى كان معتقلا فى المانيا (بعد حرب السبعين) ، فقام هذا الجيش بالتنكيل بالثائرين ، وقد استشهد الحاج محمد المقرانى يوم 5 مايو سنة ١٨٧١ وخلفه من بعده عمه الشيخ أبو مزراق .

وليس من الممكن لنا ان نصور في هذه العجالة مقدار الفظائع التي ارتكبها الجيش الفرنسي في قمع هذه الثورة ، ولكن يمكن لنا ان نحيل القاريء الى كتاب السيد اوجين رين الذى سماه (الاخوانية) فانه يجد فيه من صور الوحشية ما يتبرى الاحساس ويهيج النفوس .

وبعد ان استسلم الثوار حكم على ستة آلاف منهم بالاعدام ، وأقصى أبو مزراق والشيخ الحداد وابنه محمد وعزيز الى جزيرة كاليدونيا الجديدة في المحيط الاهدى ، ومعهم خمسمائه من اعيان الثوار واستمروا في هذا المنفى القصي حتى ماتوا جميعا . أما الجزائر نفسها فقد حكم عليها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليونا من فرنك ذلك الوقت ، ولما عجزت القبائل عن دفعها قرروا مصادرة املاكهـم واجلامـهم عنها ، واحلال مهاجري الازاس واللورين اللذين اختاروا الحكم الفرنسي فيها .

وبرغم نجاح الفرنسيين في اخماد هذه الثورة بوسائلهم الجهنمية ، فقد كان لها اثيرها البعيد في نفوس الجزائريين عامة ، وسرعان ما اعقبتها ثورة كبيرة في عمالة وهران يترعها البشا اغا سليمان بن حمزة قائد اولاد سيدى الشيخ ، استمرت خمس سنوات كاملات بدون انقطاع . واستشهد اثناءها البشا اغا المذكور بعد ما قتل بيده الجنرال بوبيريتى المعروف بجلاد زواوة .

وفي سنة ١٨٨٢ قامت ثورة قبائل المهرانية بزعامة الشيخ ابى عمامة المراكشى واستمرت الى سنة ١٨٨٥

والى جانب هذه الثورات المسلحة كانت حركة المطالبة السلمية تنتظم من حين لآخر وتتطور بحسب ما تقتضيه الظروف السياسية ، واول حركة من هذا النوع كانت سنة ١٨٧١ - حيث انتهز السيد محمد

البدوى أحد مثقفى مدينة الجزائر فرصة ثورة العوم التى قامت بباريس فنظم هيئة تطالب بمنع حقوق كاملة للجزائريين، ولكن عملهم لم يستمر الا بقدر ما استمرت ثورة العوم الباريسية .

وفى سنة ١٨٩٢ أحس الفرنسيون بمظاهر الاستياء العام فى الشعب الجزائى، فحاولوا التمويه على ابناء البلاد ببعض الاصلاحات الجزئية والمشوهه، فأسسوا النيابات المالية على ان يكون ثلث اعضائها من الاهالى، والثلاثان من الفرنسيين.

وفى سنة ١٩٠٤ أخذت مراكش تتحرك للدفاع عن نفسها ضد اعلى المؤامرة الفرنسية الانجليزية، فأثرت حركتها على عمالة وهران التى تجاور شرق المغرب الاقصى، وتكونت هنالك جماعة اطلق عليها البعض جماعة اللصوص الشرفاء أخذت على عاتقها اغتيال كل حاكم فرنسي او رئيس جزائى متهم بموالاة الفرنسيين، وشهر هؤلاء الابطال أبو زيان القلعى (١).

وقد خمدت هذه الحركة لتبعد فى شكل هجرة احتجاجية للاراضى العثمانية سنة ١٨٩٨ و ١٨٩٩، فقد هاجر عدد كبير من العائلات المحترمة الى المشرق وتركيا فرارا من الحكم الفرنسي، وطلبوا لميدان يمكنهم فيه ان يتquinوا الفرنس لطلب النجدة من الدولة العثمانية التي ظلت الجزائر تعلق عليها املا كبيرا .

وفي سنة ١٩١٠ بدأت الاقلام الجزائرية تتحرك للمطالبة بالمساواة؛ اذ تكون الرعيل الاول من المثقفين العصرىين الذين درسوا بفرنسا ورجعوا الى بلادهم فأخذوا يبحثون عن وسائل لتحسين حالة امتهم ومقاومة اليد الحديدية التي تضغط عليها. وقد كان على رأس هذه النخبة الاستاذ احمد ابو دربة أول محام جزائى تخرج من كلية الحقوق بباريس (بعد مضي ٧٥ سنة على الحكم الفرنسي في الجزائر)، والصحافى السيد صادق دندان، والنائب المالى الحاج عمار. أما برنامجهما فقد كان المطالبة بالاصلاح على اساس قانون سنة ١٨٦٥، وأما غايتها فقد كانت العمل على تحقيق الجامعة الاسلامية، ووسائلها - زيادة على الدعاية الداخلية - الاستعانة بالدولة العثمانية، ووضع الامال الكبيرة في رجالها. ويجب ان لا ننسى لهذه الفتنة المجاهدة الحملات العنيفة التي قام بها السيد صادق دندان لتأييد الاستقلال المراكشى والتشريع على غزو فرنسا لمراكش .

(١) قلعة قبيلة من قبائل الريف المراكشى .

ثم اعلنت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربي وخصوصاً الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجنديه ويلتجيء الكثيرون منهم إلى شواهد الجبال حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وعشرين ألفاً، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى إلى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمررين الفرنسيين من بينهم العامل كاسى لونى والمدبر الرئيس مارساي . وقارنت ذلك حركات منظمات في المدن تنادي بالتحرر وتطالب بالجلاء، وفرت فرق من الجنديين الاهالى إلى صفوف الدولة العثمانية من أهمها فرقة الوطن الحاج محمد بوكابويا، فأخذت حكومة باريس تشعر بالخطر الذي يهددها من الجزائر، والتوجهات إلى سياستها التقليدية التي هي الوعود الخلابة والتلويع الكنوب . وهكذا بعث المسيو بريان رئيس الوزارة الفرنسية للمسيو كلمينصو الذي كان في ذلك الوقت رئيس لجنة الخارجية في مجلس النواب وللمسيو ليق الذي كان رئيس الشئون الخارجية في مجلس النواب كتاباً يعترف فيه رئيس الحكومة بأنه قد حان الوقت الذي يفسح فيه المجال للجزائريين كي يتمتعوا بسائر الحقوق المدنية .

وما انتهت الحرب سنة ١٩١٨ حتى تشكل وفد من الضباط الجزائريين يترأسه الامير خالد وتقدم إلى الرئيس ولسون وهو في فرنسا يطالبه بتطبيق المبادئ الولسونية على الامة الجزائرية .

ولم يكن هذا الوفد الا محاولة أولى لتكوين حركة سياسية واسعة النطاق، فما أصدرت فرنسا سنة ١٩١٩ قانون ٤ فبراير الذي قررت بموجبه الغاء قانون (الأنديجين) وتوسيع الحقوق المطلقة للجزائريين فيما يخص انتخاب نوابهم في المجالس البلدية والمالية حتى أحيل الامير خالد الذي كان ضابطاً بالجيش الفرنسي على التقاعد، وعاد إلى الجزائر حيث شكل هيئة سماها «كتلة المنتخبين (بالفتح) المسلمين الجزائريين»، وقد قامت هذه الكتلة تحت زعامة الامير بحركة قوية ترمي إلى أمرتين :

- أولاً - الحصول للجزائريين على كامل الحقوق .
- ثانياً - اصلاح أحوالهم الاجتماعية .

ومن أهم المطالب التي دافعت عنها هذه الكتلة ايقاف الهجرة الأجنبية للبلاد الجزائرية على أساس أن الجزائر للجزائريين . وقد أسس الامير لنشر فكرته والنضال عنها جريدة «الاقدام» التي كان يصدرها باللغتين العربية والفرنسية .

والحقيقة أن هذه الحركة لم تكن إلا رد فعل عنيف للارهاب الفرنسي، ولذلك كانت في طبيعتها عنيفة قوية . ولكن كان ينقصها التدقيق في برامجها والتبلور في مبادئها ، ومع ذلك فقد وصلت بأسلوبها الشديد إلى زعزعة النفوذ الفرنسي من نفوس الاهالي الذين كان الرعب يملأ قلوبهم، وسمحت للاحساس القومي المكبوت أن يتفجر محتقراً جبروت المستعمر وطغيان العاكم .

وقد تأمر المستعمرون وعدد كبير من الخونة على الامير، فطلبوها اخراجه من بلاده، ولما كان الغاء قانون الانديجيننا يحول بين الادارة وبين اقصاء الامير بغير حكم شرعى فقد طالب المستعمرون باعادة قانون الانديجيننا الملغى. ولم ينتظر الوالى العام المسيو ستيفن رجوع هذا القانون ، بل طبقه على الامير بصورة رجعية ، وقرر ابعاده عن الجزائر ، فالتجأ إلى مدينة الاسكندرية .

ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة ١٩٢٤ وانتصرت كتلة اليسار بزعامة بلوم وهيريو سمح للأمير خالد بالعودة لفرنسا حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الافريقي ضمت عدداً من العاملين، من بينهم السيد مصالي الحاج (رئيس حزب الشعب الجزائري اليوم) وعبد القادر بن الحاج على وعبد العزيز المنور والسيد على العمامى من مراكش ثم عاد إلى الاسكندرية ، وقد اشتد القتال بين الفرنسيين وبين بطلاً الريف الزعيم عبد الكريم في مراكش . فاتهم الفرنسيون الأمير خالد سنة ١٩٢٥ بالتأمر على فرنسا وهجم البوليس الانجليزى على منزله، وقد اعتبر هذا العمل مهيناً له فطلب القنصل الفرنسي للبراز، وعد السفير جايار بدوره عمل الامير اهانة لفرنسا فطالب باسمها حكومة مصر باخراجه من بلادها ، فأخرج مكبولاً بالحديد إلى سوريا حيث بقى إلى أن مات في سنة ١٩٣٦ .

وأما الدعوة التي نشرها الأمير خالد أثناء اقامته بفرنسا بين الجالية المراكشية والجزائرية فلم تضع بذهابه، بل استمرت في نشاط لا يمكن لمؤرخ الحركة في الشمال الافريقي أن يتناساها سواء فيما يرجع إلى الجزائر او مراكش ومن أهم مظاهر هذا النشاط المؤتمر المغربي الذي انعقد لمعالجة شؤون الشمال الافريقي السياسية والاقتصادية والنقابية في أواخر سنة ١٩٢٤، وكان في جملة مطالبه حرية الصحافة والقول، والتوجول للدعایة من أجل القضية المغربية ، والغاء قانون الانديجيننا.. الخ. وقد ختم اعماله ببعث برقية للشعب

المراكمى فى شمال المغرب الاقصى وزعيمه عبد الكريم، واخرى للشعب المصرى والتونسى. ومن المفيد اثبات نص البرقية الاولى :

«ان العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية المجتمعين بمؤتمرهم الاول فى هذا اليوم التاريخى ٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ يهنتون اخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الاسپانى، ويصرحون بتضامنهم معهم فى كل ما من شأنه ان يحرر بلادهم، ويشاركونهم فى الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمى والاستعمار الفرنسي»

ان هذه البرقية وحدتها دليل على الروح التى كانت تملأ المواطنين منذ ذلك العهد، والتى كان الاستعمار يكتبها فى الداخل، ولكنها تجاه من النظام الديموقراطى فى فرنسا وسيلة للتعبير عن نفسها. اليست هذه التحية النبيلة منطقية على كل برناوجنا القومى الذى نناضل عنه اليوم : الاستقلال التام، والتضامن مع الشعوب العربية كلها، والعمل على تحرير الشعوب المستعبدة فى كل مكان !

لقد استمرت حركة اخواننا فى باريس، واكتسبت عدة الوان يهمنا منها فى موضوعنا هذا اللون الجميل الذى سيخرج بحركة المقاومة الجزائرية من طورها العقيم المتعدد الى طور مليء بالجدة والعزمية . فهذا اللون هو تأسيس «جمعية نجم شمال افريقيا» التى كانت فى بدايتها الاول عبارة عن هيئة اغاثة للمغاربة، ثم اصبحت فى مارس سنة ١٩٢٦ جمعية سياسية تعمل للدفاع عن كيان المغرب العربى وتطالب بحقوقه، وأسست لها جريدة باللغة الفرنسية تحمل اسم (الامة) .

وقد بذلت هذه الجمعية مجهودا كبيرا فى تنظيم العمال المغاربة بفرنسا وتربيتهم تربية سياسية واجتماعية على غرار الاحزاب السياسية الفرنسية، ومن الحق ان ننوه بما قام به رئيسها السيد مصالى الحاج الذى ظل هو واخوانه العمال المراكشيون والجزائريون مثل الكفاح المتجرد والتضحية السادرة . وبما ان هذه الجمعية قد ضاعفت نشاطها وطالبت بالتحرر الكامل للشمال الافريقى فى لهجة عظيمة لم يعهدنا الاستعمار资料 from the french من قبل ذلك فقد رأت فيها حكومة فرنسا خطرا قويا لا يمكن استمراره. فقاومتها بأمرتين : أولا نشر دعاية قوية ضدا عليها فى الجزائر وتونس بدعوى انها فرع من الحزب الشيوعى، وبكونها متطرفة فى مطالباتها ولا ت يريد العمل الا لصالح موسكو والشيوعية الدولية، وقد اغتر بهذه الدعاية نواب الجزائر وانصارهم. وثانيا : قدم وكيل الجمهورية

بمحكمة السين دعوى على «نجم شمال افريقيا» فأصدرت المحكمة حكما بحلها في ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٩ لأسباب لم تعيّن، ولكن هذا الحكم لم ينفذ قط بصفة رسمية؛ الامر الذي سمح لرجال الجمعية ان يستأنفوا نشاطهم فيها بعد ان مضت ستة أشهر من صدور الحكم وعدم تنفيذه طبقا لل المادة ١٥٠ من قانون المسطرة المدنية

نعم : ان نجم الشمال الافريقي سار بعد ذلك ببطء اقتضته ظروف الضغط الذى وجد فيها، وعدم فهم الكثيرين من بيدهم مقاليد الرأى العام فى داخل الجزائر. وفي سنة ١٩٣٣ نفيت الى فرنسا ووقع بيني وبين الزعيم مصالى اتصال مباشر ادى الى تفاهم كبير بين هذه المؤسسة المغربية وبين «كتلة العمل الوطنى» المراكشية التى كنت من رجالها . واشتربنا فى عدة مؤتمرات كانت ترمى لتنوير الرأى العام فى فرنسا كما أن اجتماع مؤتمر «طلبة شمال افريقيا المسلمين» بفرنسا أتاح لي الفرصة أن أدفع عن مبدأ الاستقلال الجزائري ضدًا على الذين يدعون للتجنيس. وقد وقعت بيني وبين تونسيين هما عبد الرحمن يس والسيد اليعلوي محاورة شديدة فى احدى جلسات المؤتمر فكنت ادفع عن رفض قبول المتجلسين الجزائريين فى مؤسساتنا المغربية فى فرنسا، وكان السيدان المذكوران يعارضان رأىي. أما السيد مصالى واخوانه فقد كانوا كلهم يؤيدون الوجهة التى ادفع عنها وقد انتهى الامر بانتصارها واتخذ التونسيون والجزائريون والمراكشيون الموجودون فى فرنسا بمناسبة ذلك المؤتمر قرارا حاسما بضرورة احتفاظ سائر اقطار الشمال الافريقي بشخصيتها العربية الخاصة .

وفي ٢٢ مايو سنة ١٩٣٣ انعقد اجتماع عام لجمعية نجم شمال افريقيا فاتخذت البرنامج الآتى :

١ - الاصلاحات المستعجلة :

(أ) حرية الصحافة والمجتمع والجمعيات.

(ب) تعويض المجالس المالية فى الجزائر ببرلمان قومى جزائرى منتخب بتصويت عام.

(ج) احلال الجزائريين فى سائر وظائف الدولة بالجزائر.

(د) التعليم الاجبارى باللغة العربية.

(هـ) تطبيق الحقوق الاجتماعية والنقابية على العمال المغاربة

٢ - جلاء جيوش الاحتلال وتأسيس جيش قومى

٣ - الاستقلال الكامل للجزائر واعتبار جميع التراث الاقتصادي ملكاً للدولة الجزائرية، ونزع الملكية لجميع المستعمرين الغاصبين وأبنائهم وارجاع الاراضي المغتصبة لملاكيها الأصليين .

وفي مارس سنة ١٩٣٤ تابعت محكمة السيني الفرنسية السادة مصالى الحاج وايماش عمار والرضا ابو القاسم بدعوى انهم اعادوا تركيب جمعية صدر حكم سابق بحلها. وقد خرج المتهمون منتصرين لأن الحكم السابق لم يطبق في ظرفه القانوني، وهكذا استمر نجم الشمال الافريقي موجوداً بصفة رسمية بفضل ثبات رجاله ونشاطهم المتواصل حتى سنة ١٩٣٦ حيث دخلت المؤسسة المغربية في صراع عنيف مع الحزب الشيوعي الفرنسي ادى الى تظاهر احزاب الجبهة الشعبية الفرنسية عليها وانتهى الامر بأن أصدر المسيو بلوم قراراً مؤرخاً بالسادس والعشرين من مارس سنة ١٩٣٧ بحل «جمعية نجم شمال افريقيا» مطبقاً عليها القانون الفرنسي المتعلق بالعصب .

ومن جهة اخرى فقد نبغ في الجزائر عالم ديني مغربي كبير هو الشيخ عبد الحميد ابن باديس المنحدر من سلالة عريقة في المجد هي عائلة الزيريin الذين أسسوا امارتى بجاية وقلعة بنى حماد . وكانوا السبب في قطع صلة المغرب بدولة الفاطميين .

تخرج هذا العالم من جامع الزيتونة بتونس، وبعد أن أتم دراسته وعاد إلى وطنه قام بحركة سلفية خطيرة اسس لها جريدة اسبوعية هي «الشهاب» التي ظلت في وقت الحرب الريفية منبراً عاماً لرجال الاصلاح الديني فيسائر المغرب وخاصة في مراكش، حيث كنا نحن الآخرين نقوم بحركة عظيمة لمقاومة الطرق التي كان الفرنسيون يستغلون بعض رجالها ضداً على الحرب التحريرية الريفية، وفي سنة ١٩٢٨ أسس الشيخ ابن باديس «جمعية العلماء المسلمين» في الجزائر فانضم اليهم عدد من مثقفي القطر الشقيق، وكان لها أثر فعال في تنوير الرأي العام الاسلامي بالجزائر ونشر الثقافة العربية فيسائر الاوساط زيادة على بعثها للوعي العربي في نفوس ثلاثة كبيرة من انصارها العديدين .

واذا كانت هذه الجمعية ترمي بصفة رسمية الى غاية غير سياسية، وهي تطهير العقيدة الاسلامية في الجزائر من الخرافات، واحياء اللغة العربية في البلاد وتقويتها الشعور بالشخصية العربية في الجزائر، فإن هذه المبادئ نفسها تعتبر في ارض ترژح تحت الاستعمار الفرنسي الذي يرمي رسمياً للقضاء على الاسلام الصحيح واللغة العربية والشخصية القومية

في مستعمرة الجزائر التي يجب أن تعد جزءاً لا يتجزأ من الوطن الوالد، وإن لم يتمتع ابناؤها بما يتمتع به المواطن الفرنسي من الحقوق - هذه المبادئ نفسها تعتبر من صميم السياسة في نظر المستعمرين ورجالهم، والدعوة إلى تحقيقها تدخل الجمعية - أحببت أم كرهت - في منازعات قوية ومشادات صميمة مع الحكام الفرنسيين من جهة، ومع رجال الطرق الذين كانت السلطة الفرنسية لا تتأخر عن استغلالهم لصالحها من جهة أخرى . على أن هذه الصبغة الدينية المضطهنة التي اكتسبتها الجمعية جعلت في سياساتها كثيراً من الغموض أحياناً؛ لأن رجالها لم يكونوا ينضمون للحركة السياسية إلا كأفراد مستقلين لا بصفتهم أعضاء في جمعية العلماء ثم هي بصفة عامة لم تكن تتقييد بالتعاون مع حزب من الأحزاب بل كانت تعمل مع الكل، وتستغل الحركات القائمة لتنشر دعوتها وأفكارها في أنصار كل هيئة وكل حزب . ولكن يمكننا أن نؤكد بأن العقيدة الحق التي يحملها الشيخ ابن باديس هي ضرورة استقلال الجزائر عن الحكم الفرنسي، وليس أدل على ذلك من هذه الفقرات التي نقتبسها من مقال نشرته مجلة «الشهاب» في أبريل سنة ١٩٣٦ :

«اننا نرى أن الامة الجزائرية موجودة ومتكونة على مثال ما تكونت به سائر أمم الارض، وهي لا تزال حية ولم تزل، ولهذه الامة تاريخها اللامع ووحدتها الدينية اللغوية ، ولها ثقافتها وتقاليدها الحسنة والقبيعة كمثل سائر أمم الدنيا . وهذه الامة الجزائرية ليست هي فرنسا ولا تريد أن تصبح هي فرنسا ، ومن المستحيل أن تصبح هي فرنسا حتى ولو جنسوها» .

ومن المستحيل على المؤرخ أن يتجاهل الدور الكبير الذي لعبته وما زالت تلعبه هذه الجمعية المخلصة في ميدان العمل القومي في داخل الجزائر ، فقد كانت لها فروع ومدارس منبثقة في مختلف الجهات ، وصحف عديدة بالعربية والفرنسية ، ودعاة يتجلبون لنشر السلفية والوطنية، ناهيك من بينهم ابن باديس والشيخ الابراهيمى والشيخ العمودي والمليبي والشاعر محمد العيد، وغيرهم من لا يتسع المجال لذكرهم . وقد ظلت هذه الجمعية في الداخل و «نجم الشمال الافريقي» في فرنسا الهيئتين العامتين وإن اختلفت منهاجهما لخير الشعب الجزائري منذ سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٤ حيث حدث في قسنطينة حادث كان له أثر كبير في تطوير الحركة الجزائرية على الشكل الذي سنبينه .

في مساء اليوم الثالث من شهر أغسطس سنة ١٩٣٤ عمد اليهودي المسمى خليفة اليالو من عساكر زواف والقدسية الاصل الى البول في مرحاض أحد المساجد الاسلامية، وسب المسلمين جهاراً، فادى ذلك الى تبادل مشادة بين المسلمين والاسرائيليين تجراً فيها الآخرون على رمي الاولين بالرصاص. فاضطر المسلمين للدفاع عن أنفسهم بالحجارة وتم اليوم بتسجيل عديد من الموتى وعدة عشرات من جرحي الفريقين . ومن الغد أصبح عربيان مقتولين برصاص يهوديين ودفنا بهدوء ، وعقد المسلمون مهرجاناً للاحتجاج على تعزيز السلطة الى جانب اليهود في المشادات ، وقد كاد يقف الامر عند هذا الحد لو لا أن السلطات العسكرية أرسلت فرقاً من الجندي بدعوى حفظ الامن، وكان من بين أفرادها عديد من اليهود الذين سرعان ما تالبوا مع الاسرائيليين المدنيين الذين هبوا من أماكنهم لمواصلة الانتقام من المسلمين، وانتهى الامر بقتل عنيف بين الشعب والجند من جهة ، وبين المسلمين واليهود من جهة أخرى. وقد قتل في هذا الحادث عدة مئات من الجزائريين وغيرهم. وطبعي ان نأخذ هذه الحوادث على انها نتائج للسياسة العنصرية التي اتبعتها الحكومة الفرنسية في الجزائر منذ تمرير كريبيو الذي أشرنا اليه من قبل؛ اذ لو لا اعطاء اليهود الاهالي حقوق المواطن الفرنسي لما تجرأوا على مس المسلمين الذين أصبحوا في نظرهم مجرد أهالى منحطين لا يستحقون من كل فرنسي أو متفرن غير الاهانة والاحتقار، ولذلك فان أثر الحوادث كان عظيماً في بعث الشعور بالكرامة في نفوس المسلمين الذين جددوا نشاطهم ولموا شعثهم وقاموا بمحاولات جديدة متنوعة للمطالبة بحقوقهم الطبيعية معلنين سخطهم على السياسة الفرنسية المبنية على التفرقة وضرب العناصر المتساكنة بعضها ببعض.

وقد تخوفت الحكومة الفرنسية ومستعمروها من تطور الحالة في الجزائر حتى طلب النائب الفرنسي رئيس بلدية قسنطينة من حكومة باريس أن تعد خمسمائة طائرة حربية لتهديد الجزائر، وقد صرخ هذا النائب بما يأتى :

«يجب أن نحتل البلاد احتلالاً عسكرياً بجيش كافٍ وموثق به، وللاحتياط من تكرر هذه الواقع الخطيرة يجب أن تكون حماة أقوىاء ذوى بوليس منظم ومنسجم، وأن يعطى الوالى العام الحق في تجنيد جميع المواطنين الفرنسيين في حالة الخطر» .

وهكذا أصبحت الجزائر في حالة حرب مع فرنسا ، وقد كانت محاكمة الدكتور ابن جلول فرصة أخرى لظهور السلطة بقواتها العسكرية، وتظاهر الشعب برغبته في الحرية والمساواة . ثم زار الجزائر وزير الداخلية مسيو رينيه بدعوى دراسة الاحوال ، وبعد ما عرف اتجاهات الاهالى التحريرية أصدر قراره المعروف بقرار رينيه القاضى بالعقاب الصارم لكل الذين يقاومون النفوذ الفرنسي، وقد طبق هذا القانون بعد ذلك على تونس ومراكش أيضا .

أسفرت حوادث قسنطينة عن حقيقة بينة، وهى أن المنتخبين الاهالى فى المجالس المحلية لا يملكون من النفوذ الشعبي شيئاً، وظهر على المسرح السياسى الى جانب العلماء المسلمين أشخاص جدد هم الدكتور ابن جلول وعباس فرحتان وقد بينما فيما سبق اتجاهات الرسمية وغير الرسمية لجمعية العلماء ، أما الدكتور ابن جلول فقد كان كثير التقلب فى مبادئه ، وأما عباس فرحتان فهو فى الحقيقة شخصية ممتازة بثقافتها وذكائها ، ولكنه فى الوقت نفسه كان من أنصار الاكتفاء بالمطالبة بالمساواة مع الفرنسيين فى الحقوق ، وقد سبق لي أن اجتمعت به فى باريس سنة ١٩٣٣ وناقشتة فى فكرته ، والذى فهمته من حديثه أن المطالبة بالحقوق الفرنسية ليست الا مرحلة يجب أن تجتازها الجزائر، وأن استقلال الامة الجزائرية يجب أن يكون الغاية البعيدة التى نعمل لها . ومعنى هذا أن هذه المرحلة من الحركة كانت ترمى الى الحصول على الحقوق الفرنسية لا لترتبط بفرنسا بل لتنفصل عنها، مثلها فى ذلك مثل اirlندا التى اعتبرت انجليزية، ثم توصلت بعد ذلك الى تحقيق حكومة ذاتية واستقلال نوعى .

ومهما يكن رأينا فى هذه الخطة فالواقع الذى لا شك فيه أن زعماء هذه المرحلة أعطوا للجزائر الحركة الاكثر تنظيماً ، والداعية الاعظم تأثيراً، وقد استطاعوا أن يؤلبوا من حولهم سائر أفراد الشعب الجزائري وأن يمدوا يدهم لجمعية العلماء وجمعية «النجم الافريقي» على ما بينهم من تباين فى المبادئ؛ لأن الغاية كانت هي مقاومة السياسة العنصرية والقضاء على نفوذ المستعمرىين من جهة، وعلى مبدأ التجنيد الفرنسى من جهة أخرى . وهكذا انبعثت من جديد مسألة دخول المسلمين للبرلمان الفرنسي، واشتدت الدعاية لمشروع فيوليت الذى يرمى لاعطاء هذا الحق للجزائريين تدريجياً .

كتب عباس فرحات كتابه «الشاب الجزائري» ليشرح أفكاره ومبادئه وكتب مسيو فيوليت كتابه عن الجزائر ليدافع عن مشروعه ، ول يقول للفرنسيين اننا اذا لم نتعجل بتحقيق ما ترمى اليه هذه الفتنة الجزائرية فسنرمي بها فى أحضان دعاء الجامعة العربية، وخصوصا بعد الحركة الاستقلالية النشطة فى مراكش، والحركة الدستورية المنتعشة فى تونس، وتواتت النشرات فى الصحف واستطاعت الدعاية أن تريح لفائدتها كل أحزاب اليسار فى فرنسا، خصوصا بعد حادث ٦ فبراير التى شارك فيها العمال المغاربة فى باريس لمناصرة الديمقراطية ومقاومة الفاشيين الفرنسيين .

بعد انتصار الجبهة الشعبية الفرنسية

كان لتأسيس الجبهة الشعبية الفرنسية وانتصارها في الانتخاب أثر عظيم في نفوس المغاربة وخاصة الجزائريين؛ إذ اعتقد إخواننا أن هذه الأحزاب اليسارية التي طالما تبرأت من كل ما يرتكبه المستعمرون الرجعيون من ظلم وعدوان سوف لا تتأخر عن تحقيق رغائب الأهالي على الأقل في دائرة المبادئ التي ادعت أنها تعمل لها وتجاهد في سبيلها وتريد الحكم من أجلها.

«الخبز ، السلم ، العربية» تلك هي المبادئ الأساسية التي بنيت عليها حكومة الجبهة الشعبية، وتلك هي الاقساط الضرورية لتحقيق العدالة الشعبية لكل شعب وكل فرد . لذلك لا غرابة إذا رأينا أن قسما كبيرا من الجزائريين يضع أمله العظيم في هذه الحكومة الجديدة التي ليست إلا مظهرا لارادة الطبقة المستضعفة من الشعب الفرنسي نفسه . وقسما آخرا ينتهز الفرصة ليطالب للشعب ببعض حقوقه وإن لم تتبدل نظرته للمستعمر بتبدل حكومته . وهكذا ما بزغ نجم الحكومة الجديدة حتى انعقد في الجزائر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٣٧ مؤتمر إسلامي جزائري تحت رئاسة الدكتور ابن جلول ومشاركة سائر التجمعات السياسية والأهلية، ومن بينها جمعية العلماء المسلمين مع استثناء رجال نجم الشمال الأفريقي . وقد قرر هذا المؤتمر المطالبة بالنقاط الآتية :

- ١ - انتخاب المسلمين الجزائريين في البرلمان في غرفة انتخابية متحدة مع الاحتفاظ للناخبيين بحالتهم المدنية .
- ٢ - نسخ قانون الاندیجين، واصلاح قانون الغابات، والغاء قانون ٤ أغسطس سنة ١٩٢٦ المنقح بقرار ٤ ابريل سنة ١٩٢٨ المتعلق بتنقلات الأهالي الجزائريين في فرنسا، والغاء قرار رينيه الراجع لمقاومة الذين يمسون بالسيادة الفرنسية في الجزائر .
- ٣ - الغاء الادارة العامة للشئون الاهلية وأقاليم الجنوب .
- ٤ - الاعتراف باللغة العربية كلغة قومية في الجزائر .
- ٥ - القيام بتطهير عام في الادارات الجزائرية .

هذه هي المطالب المتواضعة التي قررها المؤتمر وهي في ذاتها قليلة الأهمية بالنسبة لصورة المؤتمر والجو الذي أحدثه في البلاد الجزائرية كلها. ولقد أراد أصحابه أن ينظموه على غرار المؤتمر الهندي فيصبح حزبا يعبر عن أمانى الامة الجزائرية ويضم مختلف هيئاتها. ولكنهم اختصروا فيه آمال هذه الامة ولم يعبروا الا عن جزئيات مما يشغل بال الشعب الجزائري الذي يريد حرية حقيقة ونهوضا جديا.

عين المؤتمر وفدا من أعضائه يحمل للحكومة الفرنسية مطالبه، وقد سافر هذا الوفد بعد ما ودعته الامة كلها بمظاهرات عظيمة كانت تهتف بالاستقلال والتحرر وسقوط الظلم والعدوان . وفي يوم ٢٣ يوليه من السنة استقبله رئيس الحكومة مسيو ليون بلوم الذى صرخ لاعضائه بسروره من استقبال فرنسي لفرنساين وديمقراطى لديمقراطيين وبيهودى لمسلمين . ثم أخبرهم بأن الحكومة تستعد لتحقيق عدة اصلاحات فى الجزائر ، وأنها ستدرس مطالب الجزائريين بكل ما يتقتضيه العدل والاخاء .

كان لهذا الاستقبال صدأ الحسن فى نفوس الجزائريين ، وتكون بين أنصار المؤتمر وأنصار الجبهة الشعبية من الفرنسيين شبه تحالف للمطالبة بحقوق المستضعفين ومقاومة كبار المستعمرين فى الجزائر الذين لا يرغبون الا فى مصالحهم الخاصة . وهكذا توالت المظاهرات المشتركة التى تهتف للخبز والسلم والعريمة . ومن أهم هذه المظاهرات الاستعراض الشعبي الكبير الذى وقع يوم ١٤ يونيو وشاركت فيه المرأة الجزائرية المسلمة حيث مرت فى موكب خاص وهى تعانى بالتعية الديمقراطية . ولكن هذا التظاهر السلمى لم يدم الا بضعة أيام ، حتى بدأت الحركة الشعبية التى تطالب بتحقيق الوعود المعلنة ، فتضاعف اضراب العمال المسلمين فى المصانع والمعامل التى يملكونها أفراد وشركات الاستعمار资料， وانتشرت دعوة الاضراب حتى فى اوساط العمال الفلاحين الذين أخذوا يشوروون على نير المعلم، ويطلبون بالارض وبالمساواة فى الحياة، وقد احتل المضربون الطرق واخلوا العزب، ومن الايام الشهيرة : يوم ١١ يونيو فى سيدى موسى ، و ١٣ فى بئر توتا، و ١٥ فى حسين داي، وروفي جو، وقرة الماء، وبئر خادم، و ١٦ فى ستولى وبوجى، وتطورت الحالة فى بعض الجهات الى مظاهرات عنيفة، ففى يوم ١٤ يونيو تجمع جمهور كبير فى سيدى بالعباس، ووقدت مشادة بين المسلمين والمستعمرين أسفرت عن ٤ جريحا، وكذلك فى

وهران وتلمسان ومستغانم حيث قتل بعض المستعمرات وجرح بعض المتظاهرين ومات بعضهم. ويظهر ان شهر يوليه كان اكثر من يوميه اضطرابا، اذ وصل عدد المضربين فيه الى ٤٠ ألفا حسب الايضاخ الذى أعطاه مسيو أو بو فى مجلس الشيوخ الفرنسي، ولم يخف شأن الاضرابات الا فى ديسمبر سنة ١٩٣٦ . وفي ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٧ وقع صراع عنيف فى سيدى بالعباس، ثم فى فاتح مارس الموالى اجتمع فى قرية مرسى لا كونت (عمالة وهران) مئات من العمال الفلاحين وقرروا الاضراب والتظاهر. وفي الغد توجهوا الى السوق العظيم الواقع فى طريق معسکر ليمعنوه من الانعقاد، (وهذا ما يسمى فى العرف القبلى فى المغرب بكسرو السوق)، وهو رمز اعلان الثورة فى القبيلة . فحاصرروا الطرق المؤدية اليه، ولما عجز العامل عن ردهم استدعى القوات المسلحة فانضم الى العمال اكثر من ١٠ آلاف شخص من القرى المجاورة للسوق، وما وصلت فرقة الليفيف الاجنبى الاولى حتى هاجمتها المتظاهرون بالحجارة، ووقدت معركة عنيفة بين الجانبين.

وفي يوم ٩ من الشهر نفسه أضراب عمال المعامل ومناجم النحاس فى نواحي قسنطينة، ولما أبى العملة الاوربيون التضامن معهم جرت بين الفريقين مشادة تدخل فيها الجيش وسقط فيها عديد من القتلى.

* * *

لقد تعمدنا سرد امثلة من الحوادث التى جرت فى الجو الذى كونه انعقاد المؤتمر الاسلامى الجزائري فهل كان هذا الجمهور المتحمس المندفع يؤيد رجال المؤتمر فى مبادئهم التى لا تصرح بالاستقلال ولا تطالب به؟ الحقيقة ان هتافات المتظاهرين ومطالبهم كانت ابعد بكثير من طلبات الدكتور ابن جلول وشيعته. وأن المؤتمر لم يفعل الا أن أزال الحاجز الذى كان يمنع الجمهور من اعلان صوته والابانة عن رغائبه. وإذا كانت ظروف الجبهة الشعبية او الحكومة اليسارية فى فرنسا قد وجّهت الحركة توجيها نحو التطاحن بين الطبقات، فيجب ان لا نخطئ، فالطبقة فى الجزائر ليست الا صورة من صور الفوارق التى كونها الاستعمار، وليس البروليتاريا الجزائرية الا الامة بأسرها تثور ضد اصحاب مهن، ومهما يكن فان الصراع كونهم أغنياء او فقراء، رأسماليين او اصحاب مهن، ومهما يكن فان الصراع المغربي لم يشمل اياما مثل هذه التى سمح له الجو فيها ليعلن كرهه للمستعمر ورغبتة فى التحرر من عبوديته، وطموحة لاسترجاع كل الحقوق التى اغتصبت منه سواء كانت مادية او معنوية .

يقول المثل القديم : ان الحقيقة يخدمها اصدقاؤها واعداؤها على السواء، وكذلك الاستقلال الجزائري خدمه اصدقاؤه الذين يطالعون به علينا، وخدمه كذلك خصومه المستعمرون ومن اليهم من الياشين والجامدين الاعالي، وكذلك وقع، فأنه ما اخذ المؤتمر الجزائري ينعقد، وما اخذت دعوته تنتشر في الاوساط الفرنسية والاهلية حتى هبت طوائف المستعمرين تبذل الجهود المختلفة للقضاء على المؤتمر وعلى مطالبه التي عرضها بباريس. اما الوسائل التي استعملت فيهمنا ما يتعلق منها بموضوعنا، وهو احتضان المستعمرين وادارة الشئون الاهلية في الجزائر للفكرة الصحيحة، وهي ان واجب فرنسا ان تحتفظ للجزائريين بشخصيتهم الاهلية، وأن لا تدمجهم في فرنسا، أو تجنسهم بجنسيتها؛ لأن ذلك يتنافي مع الوعود المعطاة. ولقد استعملت الادارة لهذا الغرض بعض رجال الدين في البلاد من عرروا بموالاتهم للسلطة الفرنسية ومعاداتهم لجمعية العلماء وأفكارها السلفية. وقد كان في مقدمة المتزعمين لمعارضة المؤتمر مفتى الجزائر ابن دالي كحول الذي كان معروفاً بخلاصه للولاية العامة وادارتها السياسية، فانتهز بعض المتطرفين حماسة الجمهور في استقبال وفد المؤتمر بعد رجوعه من باريس، وطعن المفتى طعنة كانت القاضية عليه. وقد كان لقتله صدى كبير في الاوساط الفرنسية التي أقامت حول اسمه دعاية قوية ادت إلى اجتماع مؤتمر ثان من رجال الطرق تحت رعاية الميسيو ميو مدير الشئون الاهلية اذ ذاك، قرر مطالبة فرنسا بحفظ الشخصية الاسلامية في الجزائر، وقال ان المؤتمر الاول لا يعبر عن امانى الامة الجزائرية .

وإذا لم يكن لمؤتمر هؤلاء الذين خانوا خيانتهم الاتر الشعبي الذي كان لرجال المؤتمر الاول فان فئة من الامة على كل حال أخذت تفكير في حقيقة ما يراد منها. ولم يعد التيار الذي ساقه ابن جلول يعرف كل الذين يتعاونون معه، ثم سرعان ما تكون في وسط المؤتمر الاول انشقاق أدى إلى اخراج ابن جلول من رئاسة المؤتمر لأن أفكاره وتوجيهاته وتصريحاته لم ترق الهيئة التنفيذية. وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٣٧ عرض على مجلس النواب الفرنسي مشروع (بلوم فيوليت) القاضي باعطاء طوائف من الجزائريين الحق في النيابة والانتخاب للبرلمان الفرنسي دون ان يضطروا لالقاء أحوالهم الشخصية الاسلامية. وقد عارض فرنسيو الجزائر المشروع بكل ما أوتوه من قوة، وعقد جميع رؤساء البلديات والعمالات الجزائرية الذين هم فرنسييون مؤتمراً ضموا فيه صوتهم لشيخوخ الطريق المطالبين برفض المشروع لانه يؤدي للقضاء على السيادة الفرنسية في الجزائر .

حزب الشعب الجزائري :

كتب لي الامير شكيب ارسلان من جنيف في اوائل سنة ١٩٣٦ رسالة يخبرني فيها بالتجاء الزعيم مصالى الحاج الى جنيف، ويثنى على شهامته وذكائه. وقد ظل مصالى هناك حتى قامت حكومة الجبهة الشعبية فشمله العفو العام فعاد الى بلاده وعاد الى هذا الجو المرتبك الذي تحدثنا عنه، وبعد أن أقفلت نهائياً جمعية نجم شمال افريقيا. ومن حسن حظ مصالى واخوته أنهم لم يشتراكوا في كلا المؤتمرين الذين ذكرناهما، فأمكنهم بذلك أن يستغلوا الحوادث ويعملوا بمقتضى الروح القومية الصحيحة، فأخذوا يدعون كأفراد لرفض مشروع فيوليت، ويبثون الروح القومية في المجتمعات وتجلوات خاصة، ثم أسسوا في مارس سنة ١٩٣٧ منظمة جديدة سموها (حزب الشعب الجزائري) .

لقد ولد هذا الحزب في ظروف عصيبة، واستمد نظامه من حزبي الدستور التونسي والحزب الوطني المراكشي، وورث خلايا وأنصار نجم الشمال الافريقي وكان لرئيسه اتصال كبير باخوانه في مراكش وتونس وبعطوفة الامير شكيب ارسلان. وهذا ما ادى فعلا بالفرنسيين لمقابلة الحزب الوليد بكل ما في استطاعتهم من استنكار وغضب. وفي ١٧ أغسطس من السنة نفسها اعتقل الزعيم مصالى وجماعة من اخوانه من بينهم الشاعر الاديب مفدي زكرياء وحكم عليهم بالسجن سنتين بدعوى انهم عاودوا تأسيس جمعية النجم المنحلة باسم حزب الشعب، وأنهم يقاومون السيادة الفرنسية في الجزائر ويعملون لصالح الوحدة العربية. وفي سنة ١٩٣٨ رفضت الاغلبية من النواب الفرنسيين مشروع بلوم فيوليت فتأكد لمن لم يكن يعلم ان سياسة الادماج لم تكن الا اداة تستعملها الادارة الفرنسية كلما دعت اليها حاجة الظروف والاعتبارات لكسب الوقتريثما يتضمن لها أن تضرب. وهكذا انفصل عباس فرحات أيضا عن هيئة المؤتمر، ولكن ليعلن ما وصلت اليه تجربته من ضرورة اعطاء الشعب الجزائري كيانا ذاتيا يتمكّن معه من أن يحكم نفسه بنفسه ما دام الحاكمون يأبون عليه حتى أقل مظاهر المساواة مع غيره من الجماعات الإنسانية. ثم اطلق سراح مصالى في أغسطس سنة ١٩٣٩ فوجد القادة الجزائريون أنفسهم جميعاً متفقين بحكم الواقع على استنكار التلاعب الفرنسي، وعلى الرغبة في العمل لتحرير الامة الجزائرية من هذه الاساليب الاستعمارية الممالة. ولكن الوقت كان على مقربة من اجتماع

ميونيخ، وال الحرب على الابواب، والفرنسيون غير مستعدين لأكثر من العنف واستعمال القوة في كل مكان. ولذلك ما حاول مصالى الحاج استئناف نشاطه حتى اعيد هو وثلاثة من المخلصين الى السجن في ٤ اكتوبر سنة ١٩٣٩ اي بعد شهرين فقط من اطلاق سراحه، وبعد ما بقى في السجن الاحتياطي ١٧ شهرا حكم عليه يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٤١ بالسجن ١٦ عاما مع الاشغال الشاقة، وبالنفي ٢٠ عاما، وبثلاثين مليونا من الفرنكた كفرامة .

حزب أصدقاء البيان :

وفي ٣ فبراير سنة ١٩٤٣ حدث ما لم يكن في حسبان الفرنسيين ان يقع، فقد احتاط المحتلون بجميع الجهات، واعتقلوا قادة حزب الشعب الجزائري كبارا وصغراء، واتخذت حكومة فيشي اساليب الدعاية القديمة للتجنيس، فاستدعت بعض النواب المسلمين وأكثرت الخطب والتصریحات ولكن ذلك كلّه لم يعُق الشعب الجزائري عن أن يبحث عن العرية التي يريدها، وكانت الضربة هذه المرة من جانب لم تعتقد فرنسا أنه سيواجهها بغير النغمة الفرنسية؛ فقد تجمعت الامة الجزائرية كلها بما فيها من قداء دعاء التجنيس، الى انصار حزب الشعب الكثيرين، ورجال جمعية العلماء وأسسوا هيئة جديدة تحمل اسم «أصدقاء البيان» يتزعمها الاستاذ عباس فرحات. وقد قرر هؤلاء المتكلمون قطع كل صلة مع الحركات التج尼斯ية القديمة، والمطالبة بالشخصية الجزائرية الممحضة، وتأسيس جمهورية جزائرية ذات برلمان جزائري منتخب انتخابا حرا كاملا .

وإذا كانت هذه الحركة معتدلة في مطالبها بالنسبة لحزب الشعب فإنها تعتبر انتصارا من الجزائريين على انفسهم لأنها خروج من فكرة الاختلاط بالفرنسيين والتبعية المطلقة لدولتهم الى فكرة الذاتية الجزائرية، وقيامها في ظروف عصيبة يعتبر اغاثة كاملة للحركة الوطنية في الجزائر. وللجواب على هذه المطالب القومية الممحضة قررت وزارة الشؤون الاسلامية للجنة التحرير الفرنسية أن يعلن دييجول قبول فئات من المثقفين الجزائريين في حظيرة العائلة الفرنسية، لكن الوقت قد فات والشعب الجزائري وجد طريقه فلم تعد هذه النغمة البالية تطربه، ولا هذه الاساليب العتيبة تخدعه، فعوضا عن ان تهدأ الحالة خطبة دييجول بقسنطينة التي صرّح فيها بهذا القرار لم تفعل الا ان أذكت الشعور وهاجت النفوس ، فأعيد مصالى الحاج للجزائر في طيارة خاصة بقصد المفاوضة معه ،

ولكن الزعيم الجزائري أبي أن يقنع بغير المبادئ التي اعتقل من أجلها . وهكذا أعيد مرة ثالثة لجنوب الجزائر منفيا محصورا، ثم دعى عباس فرحت وعبد القادر السايع للحضور في اجتماعات في الولاية العامة فامتنعا عن الحضور وارسلوا للسجن أيضا .

وفي سنة ١٩٤٥ بعد ان استسلم المحور أطلق سراح فرحت ، ولكنه عاد للعمل ضمن حزب البيان، وقد مظاهرات في الجزائر وقسنطينة ووهران وسطيف شارك فيها انصار حزب الشعب غير المعتقلين، وحياتها مصالى فقد نقل الى الكونغو حيث مر على في قرية ماياما بمنفأى ، وقد الشعب قواتهم بما فيها من دبابات وطيارات، وقبض على عباس، أما مصالى فقد نقل الى الكونغو حيث مر على في قرية ماياما بمنفأى ، وقد حاولت مقابلته أثناء مروره فمنعنى الحرس الذين كانوا معه، وهددت السلطة طباخى الاسود من أجل أنه بلغه وجودى في القرية وتحيتى له .

مائة وثمانية وسبعين سنة ماي ١٩٤٥

شارك المسلمين الجزائريون في الدفاع عن الديمقراطية أثناء الحرب الأخيرة، ومات منهم عشرات الآلاف في صفوف الحلفاء ، كما مات من أخوانهم التونسيين والمراكيشيين وغيرهم من العرب عدد كبير ، وأبلوا جميعا بلاء حسنا في صد الطغيان النازى والفاشى عن البلاد الأوربية ظانين أن ما يبذلونه من جهد في سبيل التحرر لن يضيع، وان الإنسانية لن تسف إلى الدرجة التي بلغها المستعمرون في القرن العشرين ، فتتذكر جميل هؤلاء الشهداء ، ودمهم ما يزال طريا. وتتسى كل ما فعله العدو بأبنائها لتنتفق من الإنسانية في الشعب الجزائري المسكين.

والحقيقة أن الذين يبتلون بمصائب في هذه الحياة ثم ينجون منها قسمان : قسم يتذكر حاليه الماضية فيشعر بما فيها من آلام واحزان ، ويتسع شعوره إلى الاحساس بما يعنيه الغير من امثالها، وتحرك غيره، فيبذل من الجهد لتخلص المنكوبين مثل ما بذل لتخلص نفسه، ويجد في ذلك العمل من اللذة والمثوبة ما تطمئن له نفسه ويرضى به ضميره ، وهؤلاء هم الشرفاء . ولا شك أن من بينهم أبناء العرب في الجزائر وغيرها الذين تجاوز شعورهم بالاستعمار في بلادهم إلى التالم منه وهو في ديار خصومهم، فضحوا لمقاومة الاحتلال الاجنبي عند غيرهم كما ضحوا ويسخون لمقاومته بين ظهاريهما.

وأما القسم الثاني فلا يحس بعد نجاته من المصائب التي ابتلها بها إلا برغبة ملحة في زيادة الابتعاد عن ظروفها وصورها، وتصل به هذه الرغبة إلى حب التظاهر بكل ما من شأنه أن يجعله يحس بوجдан غير وجدان الطبقة التي نكتبته ؛ يريد أن يتقمص روح الذين نكلوا به، ووجدان الذين عذبوه، ونفسية الطاغة الذين احتقروه وأهانوه، ومن أجل ذلك ولتكن يرضى حاجته ويظهر للناس انه من أولئك يرتكب مع غيره نفس الفظائع التي ارتكبت معه؛ يريد أن يحس أنه القاتل بعد أن أحس أنه المقتول ، والشاتم بعد ان شعر انه المشتوم، والمستعبد لغيره بعد ان أحس بأنه مستعبد لسواه . ولا يزال يمعن في هذه الرغبة حتى يتتفوق على

الظالمين الاولين ، ويأتي من الجرائم فى حق اخوانه البشر ما يرتقى به أعلى مراتب الاجرام ، ويهدى به فى أحط درجات التسفل ، ولا شك أن المستعمرين الفرنسيين فى الجزائر من بين هذا القسم الثاني .

وليس هناك تفسير نفسى غير هذا الذى قلناه يمكننا من فهم الاسباب التى دعت مستعمرى الجزائر لاقامة هذه المذبحة الخطيرة يوم ٨ مايو وما بعدها .

ان يوم ٨ مايو هو اليوم الذى احتفلت فيه الامم الديموقراطية كلها بعيد النصر بعد عراك خمسة أعوام تكبدت فيه الانسانية من الخسائر فى المال والانفس والضمائر ما لم يسبق أن جرى مثله فى العالم منذ بدء الخليقة الى اليوم. ولقد ظن اخواننا الجزائريون أنهم - وقد شاركوا فى هذه التضحيات بأرواحهم وكل ما يملكون - لهم الحق فى ان يحتفلون كغيرهم من الحلفاء بعيد طالما منتهم به الايام؛ ذلك العيد الذى سيشعرون فيه لأول مرة أنهم يشاركون أبطال العالم كله فى فرح واحد وسرور متعدد، كما شاركواهم فى اسالة السموم والدماء . ولذلك فقد خرجوا يوم الاحتفال يطوفون الشوارع مع غيرهم من المتظاهرين ويحملون علم الجزائر الذى يمثل راية الامير عبد القادر مؤسس الاستقلال الجزائري، ولكن كبر على المستعمرين الفرنسيين أن يتركوا هؤلاء الاهالى يتتنفسون قليلا فى هذا اليوم، ويعلنون رجاءهم فى أن يتحقق أملهم فى بعث الدولة الجزائرية المستقلة، واحياء كيانها. فهاجموا الجزائريين العزل وأسقطوا العلم، ونشبت معارك عنيفة بين المسلمين والفرنسيين، ضرب فيها الاولون بالعصى والحجارة، وضرب فيها الآخرون بالحديد والنار؛ أى بالاسلحة التى هيأتها لهم الاعارة والتأجير الامريكية، وأسفرت المعارك الكبيرة عن سقوط أقل من مائة قتيل فرنسي وعشرات الآلاف من القتلى المسلمين .

ولم تكن هذه المعارك فى مكان واحد، بل كانت فى جهات متعددة، وأهمها سطيف، وأفظعها قالمة حيث اصطاد آلاف الشبان المسلمين ، وسيقوا افواجا الى المذبحة ، وقتلوا رميا بالرصاص .

ان من المستحيل أن تكون هذه المهاجمات التى قام بها المستعمرون فى الجزائر وليدة الصدفة، بل انها كانت مدبرة مبيضة سلح فيها الفرنسيون والفرنسيات وتضامنت فيها الاحزاب الفرنسية كلها لتفتن الشعب الجزائري المنكوب الاعزل من كل سلاح، لا لشئ الا لانه يريد

أن يأخذ حقه من النصر، كما أخذ حقه من الحرب، ويغزو بقسط من حريته القومية، كما شارك في تحرير غيره من الشعوب .
لقد حاول المستعمرون أن يبرروا هذه المهاجمة بدعوى أن مصالى زعيم حزب الشعب الجزائري تجول لالقاء خطب مهيبة في بعض الجهات، ولكن هل من الحق أن يقابل خطاب يلقنه زعيم في جهة ما – مهما كان هذا الخطاب قاسياً وعدائياً – باغراق الشعب بأحدث أنواع الأسلحة الجهنمية واصلاهه ناراً حامياً يتلذذى اوارها، وحرباً طاغية لا قبل له بتصدها؟ ...

الواقع أنه كبر على الفرنسيين ما ظهر به الجزائريون من وعي قومي وطموح للحرية ورفض للتجنيس. لقد كانت الجنسية الفرنسية هي الأغنية التي يهدى بها الفرنسيون أعصاب الاهالي كلما ثاروا واحتجووا، لأنها ستحل لهم الحرية والسعادة والهناة الدائمة، ولكن الفرنسيون اصطدموا بهذه المرة بالحقيقة الجزائرية، وهي أن الشعب الجزائري لا يرضى بغير الحرية الكاملة والاستقلال التام، وأن المائة وعشرين عاماً التي قضتها تحت حافر المستعمر لم تقتل في نفسه شعوره بقوميته وملته وعروبتة، بل زادته حنقاً على الاستعمار، وتشبّثاً بأهداب حقه الضائع. وحقن المستعمرون فلم يستطعوا هضم هذا الواقع وتربيّثاً مدة الحرب – وهم يستعدون – حتى إذا تم الظفر على المحور وعادوا بمنجاة من مخاوفهم انتفّشوا كما تنتفّش المهرة، وانطلقوا على المساكين ينتقمون منهم ويحدّروهم من الغلط ويثبتون لهم أن القوات الفرنسية ما تزال قاهرة، وأن فرنسا الخالدة لا تنفك بالمرصاد للذين يطالبون بالحرية أو ينادون بالاستقلال .

ومهما يكن فإن هذه المسألة اثبتت للعالم فظاعة الاستعمار الفرنسي وأكّدت للذين يجهلون : أن الأمة الجزائرية لم تقبل أبداً حكم فرنسا لها ولقد زاد هذه الحقيقة وضوحاً روح الشجاعة التي ظهر بها المعتقلون من مختلف الأحزاب الجزائرية، حيث أكدوا في صراحة ووضوح ثباتهم على المبادئ واستعدادهم للبذل في سبيل الوطن المنكوب . وقد احتاج العالم المتممدين على هذه الفظائع وأشعرت الحكومتان الأنجلizية والأمريكية الحكومة الفرنسية باستنكارها لهذا العمل الشنيع، ولكن الامر لم يتجاوز هذا الاحتجاج وما زال الجزائريون يرثّحون تحت ضروب العسف وأنواع الارهاق إلى اليوم بمرأى وسمع من الأمم المتحدة ودولها المتقدمة.

حلول معروضة

وبالرغم عن كل ما جرى ، وبالرغم عن كل ما يدعى ، فقد انتهت الحرب وهى تعلنحقيقة واضحة هي تقهقر موقف فرنسا في الجزائر . وعבشا حاول الفرنسيون أن يوقعوا تيار المطالبة بالاستقلال الذي جرف كل نواحي القطر ، وأصبح العقيدة الخالدة التي يدين بها كل الجزائريين من أي حزب كان . ولم يزد استدعاء بعض طبقات الشعب للانتخاب للنيابة في البرلمان الفرنسي إلا تعقيداً للمسألة ، وتصعيبياً لحلها ، إذ أدرك رجل الشارع بصفة عملية أن هذه النيابات التي طالما وعد بها لا قيمة لها ما دامت في مجلس غير وطني ، مركزه في عاصمة المحتل ، ويستمد نفوذه من سيادة الشعب الفاتح وأمانيه .

وازاء هذه الحقيقة أخذت الحكومة الفرنسية وأحزابها يبحثون عن حق يوفق بين رغبتهم في الاحتفاظ بالجزائر كجزء من فرنسا نفسها وتحقيق أمانى الشعب الجزائري لاستقلاله ، ولكن ليس في متناول القدرة البشرية أن تجمع بين متناقضين أو توفق بين مختلفين . لأن الاستقلال يعني الانفصال أو على الأقل الارتباط بعقد تحالف يتتساوى فيه المتعاقدان ، بينما اتمام الشخصية الفرنسية يقتضي انمحاء في الغير ، أو على الأقل تبعية ضيقة المعنى كاملة المدلول . ولذلك فإن كل الحلول التي عرضها الفرنسيون ، لم تكن غير شكل جديد لمشروع (بلوم - فيوليت) الذي سبق أن أشرنا إليه .

ومن هذه الحلول ما عرضه الشيوعيون والاشتراكيون من اعتبار الجزائر وطناً قائماً بنفسه ، له حكومته ومجلسه ، ولكن محظوظ فيه بالسيادة الكاملة المنفردة لفرنسا الوطن الوالد كما يقولون . أما أحزاب اليمين فلا زالت تغنى ببنشيد وحدة الوطن الفرنسي الذي لا يقبل القسمة ، ولذلك لم يسعها إلا أن تصادق على المشروع الحكومي الذي عرضته على مجلس الأمة الفرنسي بعد زيارة وزير الداخلية ديبروه للجزائر في أوائل العام الماضي .

ويختلص المشروع الحكومي في أن يعطى للجزائر نظاماً يقضي :

- ١ - بأن تعتبر مجموعة عمالات فرنسية تتمتع بشخصيتها المدنية وباستقلال نوعي مالي ، وتنظيم خاص .
- ٢ - السلطة التنفيذية في يد الوالي العام .
- ٣ - للجزائر سلطتها التشريعية يمثلها مجلس حكومي يتكون من ستة أعضاء ، تعين ثلاثة منهم الولاية العامة ، يضاف اليهم رئيس ونائب رئيس ، ورئيس المالية . ومهمة هذا المجلس الحكومية مراقبة المجلس النيابي الجزائري الذي قرر المشروع وضعه وتنظيم شكله .
- ٤ - ويترکب المجلس النيابي الجزائري من مائة وعشرين عضوا، نصفهم للاهالي ونصفهم للفرنسيين ، ينتخبون انتخابا عاما لمدة ستة أعوام في دورتين وبالاقتراع السري . أما اختصاصات هذا المجلس فتتحصر في المناقشة والمصادقة على ميزانية الجزائر التي تعرضها مصالح الولاية العامة . كما أن له حق الاقتراع فيما يرجع للضرائب والاداءات . وكل مناقشة خارج هذه الدائرة تعتبر منعدمة ولا قيمة لها . وليس للمجلس أثناء معارضته لعمل الحكومة حتى في الشؤون المالية أن يقترع ضدها بحال، كما أن مقرراته لا تعتبر نافذة الا بعد مصادقة الحكومة عليها بمرسوم اعتيادي .

وقد صادق مجلس النواب الفرنسي على هذا المشروع يوم ٢٧ أغسطس ١٩٤٧ بثلاثمائة واثنين وعشرين صوتا مع تغيب سائر النواب المسلمين، وكل من الممثلين الشيوعيين وبعض أعضاء التجمع اليساري. أما مثلو الجالية الفرنسية بالجزائر فقد صوتوا لرفضه .

لكن هذا التصويت يعتبر عديم القيمة ؛ لأن المسلمين الذين يفهمون الامر قد رفضوه، وتغيب مثلوهم عن قبول الحضور لمناقشته . كما أن أعضاء مجلس الدولة المسلمين استغفروا احتجاجا على عرض مثل هذا المشروع على مجلس النواب وهو لا يحقق آمال الشعب الجزائري ولا يتفق مع رغائبه .

ومقابل هذه المشروعات الفرنسية عرض حزب البيان الذي أصبح يسمى (بالاتحاد الديمقراطي لمسلمي الجزائر) حلأ جديدا ظن واضعوه أنهم يستطيعون أن يوافقوا به بين وجهة النظر الفرنسية ووجهة النظر القومية في الجزائر . وهذا الحل يتطلب اعطاء الجزائري استقلالا نوعيا بتكوين جمهورية جزائرية ، لها حكومتها وبرلمانها ، وارتباط هذه الجمهورية بالاتحاد الفرنسي ، وتضامنها مع فرنسا في سياستها المتعلقة بالشئون الخارجية والمالية والعسكرية، على أن يكون هذا

الارتباط مؤقتا الى اليوم الذى تستطيع فيه الجزائر أن تناول استقلالها الكامل. وطبعى أن لا ينال هذا المشروع الاهلى نصيبا من النجاح كبيرا لا فى الوسط الفرنسي ولا فى الوسط القومى فى الجزائر ؛ لانه يتعارض مع روح الامملاك المسيطرة على السياسة الفرنسية الجزائرية، كما يتعارض مع الوطنية الجزائرية التى ترمى الى التحرير الكامل الناجز. ولذلك لم يصادق عليه حزب الشعب الجزائري الذى ظل مخلصا للمطالبة بالذاتية الجزائرية بكل ما تدل عليه الكلمة وهو لا يمسك مع ذلك عن وضع مشروع لتكوين جمهورية جزائرية، لها دستورها الذى تضعه جمعية تأسيسية منتخبة انتخابا عاما يشارك فيه مجموع الشعب الجزائري دون تمييز بين عناصره ودياناته . ويقترح لتنظيم علاقاته مع فرنسا عقد محالفه بين الطرفين على قدم المساواة تضمن مصالح المتعاقدين معا ، لكن دون أن تعرف بأى نوع من أنواع الاستعباد ، ومن بينها الانحراف فى سلك الاتحاد الفرنسي .

الحالة الحاضرة :

وضوح العقيدة التى أعلنها حزب الشعب الجزائري بواسطة زعيمه ورجاله فى المشرق والمغرب ، واستمرار رئيسه السيد مصالي الحاج فى منفى أبي زريعة بالجزائر بعد أن أعيد من الكونغو ، ومهزلة مشروع الحكومة لما سمتة بالنظام الجزائري، وقبول حزب البيان للانحراف المؤقت فى الاتحاد الفرنسي - كل هذا هيا للرأى العام الجزائري وسيلة الحكم على الاشياء ، واتخاذ الخطة المثلثى التى يتوجه صوبها بعد أن وقف برها يترى فى اختيار الطرق المعروضة عليه . وقد جاءت الانتخابات البلدية الأخيرة فى القطر الجزائري برمته دليلا قاطعا على أن الامة اختارت طريق التحرر الكامل والاستقلال التام. ولذلك فقد نال مرشح حزب انتصار العريات الديمقراطي (الذى هو الاسم القانونى لحزب الشعب الجزائري الممنوع) أكثر من ستين فى المائة فى سائر القطر، زيادة على تعيب فريق من الامة يفوق ثلث الناخبيين احتجاجا على الاجحاف الواقع والضغط المستمر . كما أن حزب الاتحاد الديمقراطي الذى هو الاسم الجديد لحزب البيان فشل فى هذا الانتخاب من أجل قبوله سياسة الاتحاد الفرنسي، ومن أجل تحالفه مع بعض الهيئات الفرنسية فى الجزائر .

وهكذا أصبحت الحالة الحاضرة تؤكد أن الامة الجزائرية مجتمعة على غاية واحدة ، هي غاية الاستقلال ، ومتوجهة اتجاهها سياسيا واحدا هو اتجاه الوضوح في عرض المطالب بالصراحة المطلقة في الدفاع عن الحق .

ويبدو أن العزبيين الجزائريين آخذان في الاقتراب من بعضهما ، فقد أعلن مسيرو حزب البيان رغبتهم في العدول عن فكرة الاتحاد الفرنسي ، كما أن عباس فرحات زعيم هذا الحزب أدى بتصریحات تدعوا إلى التفاوٌل، وأعقبها بتغيير اسم جريدة حزبه «المساواة» الذي يدل على أنه لا يطلب أكثر من تسوية الالهالي الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق والواجبات فأصبحت اليوم تحمل اسم «الجمهورية الجزائرية» الذي يدل على اتجاه أوضح في ناحية الحكم الذاتي .

وقد وجه مصالى الحاج زعيم حزب الشعب من منفاه ببورزريعة نداء حارا لاصحاب البيان يذكرهم فيه بضرورة الاتحاد والعمل على إزالة الفوارق التي لم تكن الا اثرا من آثار الاستعمار الاجنبي .

ويظهر أن جمعية العلماء المسلمين مقتنة كامل الاقتناع بضرورة العمل على تقوية الروح الاستقلالية في البلاد ، والتتوسط لتوحيد الصفوف بين العزبيين الجزائريين على أساس ما اختارته الامة في انتخاباتها الأخيرة . وقد صادق حزب الشعب على تأسيس لجنة التحرير في القاهرة ، وعيّن له ممثليين دائمين بها . ولعلنا لا ننتظر طويلا حتى نرى حزب البيان منضما إلى هذه اللجنة التي تعمل على تحرير سائر أقطار المغرب العربي باذن الله .